مجلة تسليم
Journal Homepage: https://tasleem.alameedcenter.iq
ISSN: 2413-9173 (Print) ISSN 2521-3954 (Online)

تسليم نقديّ معرفيّ:

الإِشْكَالُ المَعْرِفِيُّ فِيْ خِطَابِ أَدُوْنِيْس (مُقَارَبَةً فِي ضَوْءِ المَنْهَجِ المَوْضُوْعَاتِيِّ)

مايا عاطف حسن صفا [1]

١ الجامعة الإسلاميَّة / كُلِّيَّة الآداب والعلوم الإنسانيَّة / قسم اللُّغة العربيَّة، لبنان؛

maya3@live.com

دكتوراه في اللُّغة العربيَّة / مدرس

تاريخ التسلّم	تاريخ القبول	تاريخ النشر
٢٠٢٤/١/٢٢	٢٠٢٤/٢/٩	٢٠٢٤/٩/٣٠

المجلـد (١٩) العـدد (٣١)
رَبِيْع الأوَّل ١٤٤٦هـ . أيْلُول ٢٠٢٤ م

DOI:
10.55568/t.v19i31.155-174

CC BY NC

مُلَخَّصُ البحْث

يُعدُّ أدونيس (علي أحمد سعيد) من أكثر الشّعراء النقّاد البارزين والمثيرين للجدل على السّاحة العربيّة، لقد تتبّع هذا البحث خطابه لاستنطاق باطن مقاربته للإشكال المعرفيّ العربيّ ومعرفة ما إذا استطاع أن يحقّق رؤيةً أيديولوجيّةً في مقاربته هذه، وكيف صاغها نقديًّا وشعريًّا، وبهذا فقد أوضحَ هذا الأمر الأبعاد الأيديولوجيّة المُضمرة في خطاب أدونيس الشّعري والتي أضاءت على الجّهاز المفاهيميّ له وطبعت البُنية اللُّغويَّة والفكريَّة في مشروعه الثّقافي العام.

وممّا أفاض به هذا البحث إلى أنَّ أدونيس انطلق ليؤسّس لفكر نقديّ جديد وقيم جديدة. فهو قد تحدّث عن هيمنة أيديولوجيا السلطة على الفكر العربيّ والحياة العربيَّة، وكيف هيمنت هُويَّة التراث وطريقة قراءته على سلطة العقل فعرّى الثابت فيها لذلك اتُّهم بالغلوّ، من هنا طرح فهمه الخاصّ المرتبط بالتأويلات الجديدة للنصّ، وقد عمل أدونيس جاهدًا على التأسيس لمقولة التجاوز لأنَّها تخدم أيديولوجيّته، فمشكلة العالم العربيّ عنده لم تعُدّ مشكلة لغة بقدر ما هي مشكلة تكيّف مع هيمنة السائد.

الكلمات المفتاحية: الأبعاد الأيديولوجيّة، البنية اللُّغويَّة والفكريَّة، التأويل، التوليد المعرفيّ.

Epistemic Problem in Speech of Adonis (Thematic Methodology Approach)

Maya Atef Hassan Safa [1]

1 Islamic University / Faculty of Arts and Humanities / Department of Arabic, Lebanon;

maya3@live.com

PhD. in Arabic Language / Lecturer

Received:	Accepted:	Published:
22/1/2024	9/2/2024	30/9/2024

DOI: 10.55568/t.v19i31.155-174

Volume (**19**) Rabi'a Alawwal 1446 AH.
Issue (**31**) September 2024 AD

Abstract

Adonis , Ali Ahmad Sa'eed, is widely regarded as one of the most prominent and controversial poet-critics in the Arab literary scene. This research traces his discourse to examine the underlying approach he takes towards the Arab epistemological controversy and to assess whether he was able to achieve an ideological vision in his approach. Furthermore, this study explores how he formulated this vision both critically and poetically. In doing so, the research uncovers the implicit ideological dimensions of his poetic discourse, shedding light on his conceptual system and shaping the linguistic and intellectual structure of his overall cultural project.

This research reveals that Adonis establishes a new critical thought and new values and critiqued the prevailing ideology of power in Arab thought and life, as well as the dominance of heritage and its interpretation over the authority of reason. For this, he was accused of exaggeration. However, Adonis presented his own understanding of new interpretations of the text, working hard to establish the notion of transcendence, as this served his ideology. For him, the problem of the Arab world was no longer solely a problem of language, but rather a problem of adapting to the dominance of the prevailing.

Keywords: Ideological dimensions, linguistic and intellectual structure, interpretation, epistemological generating.

المقدّمة

طُرحت مسائل الإشكال المعرفيّ العربيّ مع تطوّر المعرفة الحضاريّة وظهور دوائر التلاقي المفاهيميّ، حيث تتداخل الرؤى والتصوّرات التي تشكّل النموذج المعرفيّ والمجتمعيّ، إذ تُعدّ هذه الرؤى من أهمّ المجالات التي تعمل على تنظيم العلاقات الإنسانيَّة، ومواجهة التحدِّي الحضاريّ والفكريّ، ممَّا يتطلَّب الغوص في الأسس المعرفيَّة التي شكَّلت وعي الأمّة في مسارها التّاريخيّ، وفي ظلِّ الأزمات المعرفيَّة برزت أهمِّيَّة الكتابة التّاريخيَّة النقديَّة المتسلِّحة بتعدّد الأدوات المعرفيَّة والمنهجيَّة، وقد عرض مفكرو الحداثة ممَّن تجمّعت لديهم خيوط الدوائر المفاهيميَّة المتباينة لمقاربات معرفيَّة مغايرة؛ وذلك في محاولة لاستنبات مفاهيم جديدة في الفكر العربيّ ، انطلاقًا من علاقة هذه المفاهيم باللّغة والنّص من جهة، وما يتّصل بأصالة المفاهيم من جهة أخرى ولمآرب أيديولوجيَّة. كما ودُرست مواقع الأفكار من المواجهات التّاريخيَّة العريضة التي حكمت ولاداتها. هذا يعني أنَّ التراث الفكريّ يُفضي بنا إلى واقع قائم بَلورت اتّجاهاته، ورسمت ملامحه التّاريخيّة الذي بقي في الذاكرة، إذ إنّنا نعيش ثقافيًّا في حضرة الذاكرة؛ لذلك عمل أدونيس على قراءة هذا التراث الفكريّ من خلال طرحه للإشكال المعرفيّ العربيّ وبحث في محتواه، ودرس عناصرهُ، وعبّر عن الفكرة أو النّص كاشفًا عن التداخل في المجالات المعرفيَّة –الفكريَّة.

ولا يخفى فقد عانت الذات العربيَّة تصدُّعًا في هُويّتها الإنسانيَّة في ظلِّ ما عايشه المجتمع العربيّ المعاصر من اصطدامات فكريَّة وحضاريَّة، وقد انبثق جرَّاء ذلك ثورات فكريَّة وثقافيَّة حداثيَّة تسعى لإعادة الذات الفكريَّة والحضاريَّة، وقد حاول أدونيس أن يكون فاعلًا فيها، إذ بحث في أواصر التوليد المعرفيّ الذي يُجلي الرؤية المعرفيَّة والأدوات المنهجيَّة المولِّدة، ويكشف عن المنبع الذي تصدر عنه هذه المعارف. فالارتباط بأصل مولِّد معيَّن والانطلاق منه في عمليَّة استقرائيَّة معرفيَّة هو الأداة المنهجيَّة في أيِّ عمليَّة تأويل لتوليد رؤية معيّنة وإنتاج فكر يُولّد ويوجّه إلى مرامي معيّنة. لذلك يُعدّ الأصل المولّد البداية الأساسيَّة لسائر المعارف.

سعى أدونيس إلى اختراق الارتباطات الفكريَّة فأثار بذلك تفاعلًا نقلنا من الثّابت المحدّد سلفًا إلى المتغيّر المتحوِّل فمن أين انطلق في رؤيته؟ وهل تعلّقت مقاربته للإشكال المعرفيّ العربيّ برؤية أيديولوجيَّة تعود إلى أصل محدّد مسبقًا؟

المنهج

استدعت هذه الدراسة الاستعانة بالمنهج الموضوعاتيّ الذي يتميّز بأنَّه ينظِّم الثابت والمتغيّر في العمل الأدبيّ في عمليَّة تكراريَّة ليكشف عن قرابات دلاليَّة خفيَّة وذلك عبر ملاحقة الكلمات المفاتيح للتعرّف عن مركز الموضوعاتيّ.

١-استعادة الحوار مع التّاريخ منطلقًا

يُعدُّ أدونيس ناقدًا عاملًا على صناعة وتغذية فكر المثقّف النقديّ العربيّ بطرائق متميّزة عن كلِّ تقليديّ. انطلق مشروعه من فكرة مراجعة التّاريخ العربيّ، وإعادة قراءته، والنّظر فيه، وتقديم اقتراحات جديدة تساعد على فهم إشكالات الحاضر. نَقَد الأفكار بلغة نقديَّة جديدة، ونثر أفكاره شعرًا؛ لذلك عُرف مشروعه في أوساط المفكّرين بمشروع الرفض لكلّ فكر سلطويّ لا يؤمن بالحرِّيَّة، وبهذا يؤسّس أدونيس وعيًّا لقراءة نقديَّة جديدة يريد من خلالها التأسيس لرؤى مختلفة "يتجرَّأ فيه الكاتب والقارئ معًا على الخروج من تاريخ المعنى... بحثًا عن معنى آخر، أو معانٍ أخرى"[١] .

١-١-هاجس الاتِّصال والانفصال:

في قراءته لثيمة الإشكال المعرفيّ العربيّ رفض أدونيس الثّقافة الإقطاعيَّة العربيَّة التي تسود المجتمع العربي وتَحَرَّكَ عقلانيًّا وفكريًّا لابتكار لغة مختلفة عن لغة العرب، في محاولة منه لإعادة تقويم ماضي الثّقافة العربيَّة. لكنَّه وجد نفسه في بؤر فكريَّة مُلتبسة الجذور الثّقافية، روافدها المسلّمات، وقناعاتها لا تتزحزح، ومُحاصرًا بالأحكام المسبقة والانحيازات فنبذته كلّ قبيلة.

١ أدونيس، موسيقى الحوت الأزرق (دمشق: دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، ٢٠١٨)، ٧٦.

" مُتدثِّراً بدمي، أسيرُ – تقُودُني
حُمَمٌ، ويهديني رُكامٌ، –
بشرٌ تموج حشودُهم
طوفان ألسنةٍ: لكلّ عبارةٍ
مَلِكٌ، وكلُّ فمٍ قبيلهُ
.... وَأنا الذي نبذتهُ كلُّ قبيلةٍ " [٢] .

إنَّ العالم العربيّ الذي نشأ في ظلِّ هذه الثّقافة السائدة بالنسبة لأدونيس، بقي مكرّسًا بالماضي حيث الموروث، وقد سعى أدونيس لتحقيق التغيير عبر الكشف عن أسس الإشكال المعرفيّ العربيّ، وهو قد حرص على بناء أفكار، تستند إلى ثنائيَّة "الثبات والتحوّل" مؤكِّدًا أنَّ التراث هو الأفق المعرفيّ المحكوم بفكرة الحركة. لذلك لا بُدَّ من محاولةٍ لإرساء التّاريخ على ركن ثابت أصيل، وهو الأساس الذي يرسو عليه النّص الصريح. هذا النصّ قد استبعِد من دائرة التأسيس لنظام المعرفة، وهو ما أدّى إلى تنازع مداه التّاريخي الذي يُشكّل النّص عُنصرًا مِن عناصره.

وممّا تجدر الإشارة إليه أنَّ رفض الماضي عند أدونيس ليس رفضًا وجوديًّا إنَّما هو رفض لكيفيَّة قراءة هذا الماضي، أي قراءة الثّقافة السائدة للماضي، وقد اعتمد في توصيفه لهذه القراءة، على لفظتي الثابت والمتحوّل، كمصطلحين إجرائيين، رأى أنَّهما " يتيحان إمكانيّة التعرّف، بشكل أكثر دقَّةً وموضوعيَّةً، إلى حركة الثّقافة العربيَّة " [٣].

يُعرِّف أدونيس "الثابت" في إطار الثّقافة العربيَّة بأنَّه " الفكر الذي ينهض على النصّ، ويتّخذ من ثباته حجّة لثباته هو، فهمًا وتقويمًا. ويفرض نفسه بوصفه المعنى الوحيد الصحيح لهذا النصّ، وبوصفه، استنادًا إلى ذلك سلطة معرفيَّة" [٤]. ويُعرّف المتحوّل بأنَّه "إمَّا الفكر الذي ينهض هو أيضًا على النصّ، لكن بتأويل يجعل النصّ قابلًا للتكييف مع الواقع وتجدّده، وإمَّا أنَّه الفكر الذي لا يرى في النصّ أيَّ مرجعيَّة، ويعتمد أساسًا على العقل لا النقل" [٥].

٢ أدونيس، الأعمال الشّعريّة الكاملة. ج٤، ط١ (بيروت: دار الساقي، ٢٠١٤)، ٢٠٩.
٣ أدونيس، الثابت والمتحوّل. ج١، ط١ (القاهرة: الهيئة العامّة لقصور الثّقافة، ٢٠١٦)، ١٢.
٤ أدونيس، ١١.
٥ أدونيس، ١١_ ١٢.

لذلك تميّزت الأطروحة الأدونيسيَّة للإشكال المعرفيّ العربيّ برفضها الانصهار ضمن أطر وميادين دراسات قطاع الحضاريَّات العربيَّة المعاصرة. وإنَّما أرادها وعيًا للماضي وإعدادًا للمستقبل، غايته من ذلك، استجلاء مقوّماتها التي تربطها بسيرورة الحياة الإنسانيَّة بفهمٍ تأويليٍّ يبدأ بها وينتهي بها ويتجدّد بتجدّدها، كما نرى في كتاب التحوّلات والهجرة:

" خارجَ الصّدَفة
أسافر.
أصعد، أتفجّر
ألبس الهديرَ والتهدُّج
أتموّج بالرّعب
أتحرّر من التّوبة، العِظة، العودة
أتحرّر من الصّبر
من دمي والتّاريخ الرّاقد فيه
أتجزّأ وأعرى وأوسوس نفسيَ ضدّ نفسي
أضعُ نفسي خارج كل شيءٍ وأقول للجنون الرّشيق أن
يسرقَ أهدابي كنسيمٍ غربيّ
أنقطعُ، أنفصل، أنفصم
أختبئ تحتَ شفتيّ
بعيداً بعيداً بعيداً
في الضوء في الظّلامْ
في الصّمت في الذّهولْ
في لغةٍ تغيّر الكلامْ
في مطرٍ يغيّر الفصول
في الظّمإِ الجامحِ والسّير بلا وصولْ "[٦].

٦ أدونيس، الأعمال الشّعريّة الكاملة. ج٢، ط١ (بيروت: دار الساقي، ٢٠١٤)، ١٥١_ ١٥٢.

خارجَ الصّدَفة، يأخذ أدونيس بزمام الوعي في سلسلة مرتبطة بين الحاضر، الماضي ليبشّر بطريقة للفهم تفتح الوعي على إنتاج معرفيّ– حضاريّ ينبوعه المركز الفاعل في الوجود. حيث لا أمكنة، ولا مسافات زمنيّة، ولا تاريخيَّة أنتجها إعلام تأويليّ ظاهريّ. وفي أطروحته المثيرة للجدل "الثابت والمتحوِّل" التي عَرّى فيها دوافع الثبات في المنظومة الفكريَّة – الثّقافيَّة، سلّط الضوء على أمثلة التحوّل المَقْصِيَّة المهمّشة التي ظلّت في زوايا من التّاريخ. وهو في هذا الحفر في بنية المخفيّ من التّاريخ والتّدوين، لم يقع في الإسقاطات المعرفيَّة الغربيَّة، لكنَّه حقَّق هدفًا مزدوجًا: الأوَّل هو استفزاز دعائم السلطة المعرفيَّة المهيمنة على صُوَر الذهن التّاريخي العربيّ – الإسلاميّ كأيديولوجيّا منتصرة، والثاني هو استعادة الحِوار مع التّاريخ؛ وبذلك وَضَعَنَا في أجواء الثّقافة العربيَّة السائدة ودعانا إلى صياغة تجانس ثقافيّ تاريخيّ، محاولًا خلق نقد جذريّ فكريّ لهذه الثّقافة. يقول أدونيس " في أساس الإشكال المعرفيّ العربيّ أنَّ الاتّجاه الذي قال بالثّابت النصّيّ قاسَ الأدب والشّعر والفكر... ولهذا فإنَّ الثّقافة التي سادت كانت ثقافة السلطة"[٧]. وفي هذه الوحدة بين سلطة النّصِّ ونصّ السلطة ندرك اتّساع ما يؤسّس له.

وفي ثنايا تبيانه للمتحوِّل بأنَّه الرافض لأحقيَّة هذا الثابت. يَشرع أدونيس في تعريف موجب للحداثة فيحدّد لها دورًا في أثر المتحوِّل، فيقول: "اليوم، تنطلق الحداثة، وهي امتداد لما سمّيته بالتحوّل من افتراض نقص أو غياب معرفيّ في الماضي، ويعوّض عن هذا النقص أو هذا الغياب إمَّا بنقل ما لفكر ما أو معرفة ما، من هذه اللّغة الأجنبيّة أو تلك، وإمّا بالابتكار والإبداع"[٨].

١–٢ العوامل المسبّبة للإشكال المعرفيّ العربيّ:

لم يتردّد أدونيس في تحديده للعوامل المؤسّسة للإشكال المعرفيّ العربيّ، إذ إنَّ عودة أدونيس إلى الأصل المسَبّب للإشكال المعرفيّ العربيّ وتحديد أنساقه في ثقافة وفكر الجهاز المعرفيّ كأساس بنيويّ في العقل العربيّ، مكّنته من تجاوز اختلاف موضوعات هذا الإشكال، ليفرض قراءةً تغور في صميم البنية المشتركة للثّقافة العربيَّة، هذه العودة تتستّر خلفها دوافع

٧ أدونيس، الثابت والمتحوّل. ج١، ١٢.
٨ أدونيس، ١٦_ ١٧.

أيديولوجيَّة تأسيسيَّة. فهو يريد هدم هذا الأصل المسبّب لصالح بناء معارف وتوظيفها انطلاقًا من التفكير الوجوديّ "الوجود الأوّل" كأصل مولّد للفهم والإنتاج المعرفيّ[٩]، وبهذا أدرج أدونيس "ذاته" ضمن هذه المجموعة ولكنَّه عاد إلى التّاريخ وأوحى بوجود هيكل تاريخيّ خفيّ عن النظر.

" وثَنَى الرّاوي:

حَرْبٌ صَمّاءْ

بين لغاتٍ وتآويلٍ ألِفٌ

لامٌ هاءْ

والأنقاضُ عقولٌ حينًا

ورؤوسٌ حينًا" [١٠].

الأصل الفعّال هو الكفيل بحلّ جميع الاختلافات والوصول إلى الحقيقة، إنَّه "صورة الإنسان". يرى أدونيس أنَّ "هدم الأصل يجب أن يمارس بالأصل ذاته" [١١]. فالثابت عنده جوهر سباتي يجب أن يُهدم بجوهر متحوّل في ثنائيَّة ضدِّيَّة ولكنَّها معياريَّة. وهذا يعيدنا إلى الأصل الضدّ المفضّل لدى أدونيس.

لقد عمد الكثير من المشتغلين بالتأويل إلى ما يُسمّى بـ"استعمال النصّ" وكان هدفهم الوصول إلى معنى ما في النصّ، إنَّ " الفهم السائد للنصّ- الأصل، يُقدّمه في صورة ضيّقة ومغلقة. وهو، في ذلك، يخلق حالة نفسيَّة - ثقافيَّة في الشعور بالحصار. يبدو النصّ نفسه عنفيًّا مخيفًا" [١٢]. فالكلمة عند أدونيس "تسجن الفكر في مدلول واحد. ذلك أنَّها ثابتة فهي شرع مطلق"[١٣]. ولا يتمّ التحرّر من هذا السجن إلَّا "بانقلاب معرفّي يتعلّق بالأصول ونصوصها، بحيث يُنظر إليها، لا بوصفها يقينًا، بل بوصفها احتمالًا أو حمّالة أوجه، لا بوصفها مستودعًا

٩ محمّد، يحيى. "التراث المعياري وصراع الأصول المولّدة،" ٢٠١٠، https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=226141.

١٠ أدونيس، الكتاب أمس المكان الآن ا، ط١ (بيروت: دار الساقي، ١٩٩٥)، ٢٦.

١١ أدونيس، الثابت والمتحوّل. ج١، ٦٤.

١٢ أدونيس، موسيقى الحوت الأزرق، ٦٠.

١٣ أدونيس، فاتحة لنهايات القرن، ط٣ (بيروت: دار الساقي، ٢٠١٤)، ٣٢٩.

للحقائق الكُلِّيَّة المطلقة، بل بوصفها كشفًا عن حقائق ترتبط بزمانها ومكانها"[١٤]. هكذا يطرح أدونيس أيديولوجيَّته التفكيكيَّة ويُقدّم التأويل التعدّديّ برؤية جديدة للكون. فتحت جسارة إقحام أدونيس لباطن موروثه في خطابه الأدبيّ بابًا للخوض في تأمُّل المقدّسات وحفّزت على التأوّل، التأويل، الرؤيا، والتساؤل إلى ما وراء الحروف، والكلمات، والدلالات. إنَّ أيديولوجيا أدونيس تتجاذبها نزعتان، نزعة صوفيَّة ونزعة عقليَّة تبدأ بالشكّ، ثُمَّ تلجأ إلى النقد، فتشقّ طريقها إلى الفلسفة، وتنتقد الدّين حتَّى تنفصل عنه وتستقلّ بموضوعاتها الخاصّة. إنَّها محاكمة نقديَّة استيعابيَّة، ظاهرها وباطنها أيديولوجيَّان. ظاهرها تكيّف مع الحداثة واستجابة للفكر العربيّ الاجتهاديّ المعاصر الذي يُعمِل العقل في نقد التراث رفضًا له أو استعادة لفيئِهِ، وكلا الاتّجاهين يتحرّك في شحنة انفعاليَّة من أجل إعادة التحكُّم بالذات، ونتيجتها تقويض واختلال خريطة الفكر والتّاريخ العربيّ– في رؤاه للماضي وللمستقبل. أمَّا باطنها فهو نظرة نرجسيَّة للذات تتمركز على الأنا وتُبَخِّسْ الـ"هُم". خِطابها أيديولوجي محكوم بمسبقات واعية "الموروث – النصّ المؤسّس – تأثيم التراث الثابت القاهر– الأصالة والمعاصرة".

كانت النظرة الأولى لأدونيس هي تأسيس نظر وفهم جديدين وأيضًا تأسيس لقيم جديدة ممّا يلزم تكوين فكر نقديّ جذريّ يُعمل أدواته في الثّقافة السائدة. فلا يسلم من ضرباته القويَّة أي جانب من جوانب هذه الثّقافة. وقد استفاد أدونيس من "ازدواجيَّة التأسيس والتوظيف" الأيديولوجيّ الذي أتقنته كلٌّ من المذاهب والملل والتّيارات المعرفيَّة ذات الرؤية العلائقيَّة. أدّى هذا الازدواج إلى وجود فارق بين التأسيس الأيديولوجيّ للمعرفة والتوظيف لها. ممّا يعني أنَّه "إذا لم يكن للأيديولوجيا حضور على مستوى تأسيس مفاصل المنظومة المعرفيَّة وجزئيّاتها المتّسقة، فإنَّ من الممكن لها أن تحضر على صعيد توظيف تلك المفاصل والجزئيّات المعرفيَّة لأغراضها الخاصَّة"[١٥]. وبذلك فإنَّ الأيديولوجيا تغيب مع حضور النقد، وتحضر مع غيابه. وهو بذلك يحرص على "هندسة روحيّة" تمهّد الطريق لمن يعمل بها لتبوّء المركز الريادي الذي يليق به في عالم الثّقافة. هذا الريادي سيكون في وضع يمكّنه من توجيه

١٤ أدونيس، ٣٢٩.

١٥ محمد، يحيى. مدخل إلى فهم الإسلام(الفكر الإسلامي: نظمه–أدواته–أصوله)، ط١ (بيروت: مؤسسة الانتشار العربي، ١٩٩٩)، ٩٠.

ضرباته النقديَّة للقيم والأفكار السائدة، والعقلانيَّة الأداتيَّة التي تغرِّب الإنسان عن ذاته والكون الماثل حياله. وفي هذا التأكيد يتّجه أدونيس لتأمين مكانة لائقة للشعر في هذا العصر. "علينا أن نطرد شبح الوضعيَّة ونتحرَّر من علمويَّتها التي همّشت الشّعر بتجريده من أيِّ مدلول معرفيّ، وإبراز الطاقة المعرفيَّة الكامنة فيه بصفته طريقًا إلى المعرفة مختلفًا عن الطرق العقليّة"[١٦]. أمّا خصائص الشاعر الحديث فهي "قدرته على التعبير عن قلق الإنسان الأبديّ، وأن يكون شعره مركز استقطاب لمشكلة كيانيَّة يعانيها في حضارته وأمَّته، وفي نفسه هو، بالذات" [١٧].

١-٣ نقد استيعابيّ لطرائق قراءة التراث المعرفيّ:

لقد طرح الفكر العربيّ مصطلحين أيديولوجيّين لحراسة نصّ السلطة وترسيخه هما "التراث" و"الأصالة". وعدَّ العرب كلَّ ما هو بعيدٌ عن الأصالة، أي أصالة الشّعر العربي دخيلًا حتَّى ولو كان عربيًّا كشعر أبي تمّام والشّعر الصوفيّ. وهذا لا يدلُّ إلَّا على هيمنة الأيديولوجيا السلطويَّة على الفكر العربي والحياة العربيَّة ليصبح الإبداع العربيّ اجترارًا للذات وليس تفاعلًا مع الآخر. هذا في الماضي، أمّا اليوم فأدونيس يراه لا يختلف عن الأمس فالإشكال المعرفيّ العربيّ ما زال نفسه. أمّا التراث في المنظور الذي يُدرس به اليوم، وفي طرائق الدراسة، فهو "تراث السلطة. هذا المنظور وهذه الطرائق تدعم وترسّخ النظام الثّقافيّ الذي تنهض عليه وبه السلطة"[١٨]. من ناحية أخرى برز التضادّ والمنافاة بين اتّجاهين رئيسين سعيًا للتأسيس للتاريخ المعرفيّ العربيّ. هيمنت هُويَّة التراث وطريقة قراءته على التنافس بين أن يكون التأسيس مجعولًا نحو اعتبار العقل في التّاريخ "سلطة العقل" أو التّاريخ في العقل "سلطة التّاريخ". أي بين أن تكون قراءة التراث المعرفيّ (برَّانيَّة أو جوَّانيَّة). هذه المنافسة تخصّ البحث عن هُويَّة التراث، فيما لو كانت طبيعته قوميَّة "تاريخيَّة" أو متعالية عقليَّة، "الطرائق "البرَّانيَّة" تركّز على فعاليَّة ونشاط العوامل الخارجيَّة كأساس لإنتاج

١٦ ضاهر، عادل. الإثم الهيراقليطي أو إرادة الالتباس في عالم أدونيس (اتّجاه، ٢٠١٧)، ٣٦.
١٧ أدونيس، "محاولة في تعريف الشّعر الحديث،" مجلّة شعر، العدد١١، المجلد٣. ٨٠: (١٩٥٩).
١٨ أدونيس، المحيط الأسود، ط٢ (بيروت: دار الساقي، ٢٠١٤)، ٤٦.

مفاصل الفكر والظاهرة المعرفيَّة"[١٩]. أمّا الطرائق "الجوَّانيَّة" فهي تنفذ إلى صميم الظاهرة المعرفيَّة لا خارجها "الأصل المولّد". وهي لا تعير أهمِّيَّة إلى وحدة التّاريخ التي تبرّر ثبات الوحدة المعرفيَّة.

إنَّ أهمَّ الدراسات الحديثة التي جسّدت المنهج البرَّانيّ تعود إلى الدكتور "محمد عابد الجابريّ". اتَّخذت هذه الدراسات من وحدة العامل الجغرافيّ والاستمراريَّة التّاريخيَّة أساسًا لتعليل وحدة العقل العربيّ. وعملت على المزاوجة بين ثلاثة أنواع من الطروح هي: " الطرح البنيويّ، والتحليل التّاريخيّ، والطرح الأيديولوجيّ"[٢٠]. أمّا إستراتيجيَّة البحث فقد عمد الجابريّ إلى إقامة "علاقات وامتدادات بين مفكّري المغرب والأندلس لأدنى مشابهة ومناسبة، ليثبت وجود وحدة واستمراريّة في التّاريخ المعرفيّ للحظة المغربيَّة"[٢١]. وهذا يعني أنَّ القطيعة المعرفيَّة بحسب مشروع الجابريّ هي قطيعة تاريخيَّة، وأنَّ البداية يجب أن تنطلق من التعرّف والكشف عن الأصل المولّد. ويكون ذلك من خلال بحث التطوّرات التّاريخيّة التي لها علاقة بهذا الأصل. ثُمَّ نمهِّد الطريق نحو بحث عمليَّة الإنتاج المعرفيّ ومن ثُمَّ فهم الخطاب. يقول أدونيس في مقدِّمة الطبعة الثالثة لكتابه الثابت والمتحوّل: "إنَّ الحقيقة التي هي مدار الصراع أتت موحاة وكاملة. إنَّها ليست في المستقبل، بل في الماضي. وهكذا نمت في حركة قوامها توكيدًا للذات ونفيًا للآخر، سواء كان هذا الآخر معاديًا للسلطة من داخل المجتمع العربي أم معاديًا للمجتمع العربي من الخارج."[٢٢]. وفيما يؤكِّد أدونيس صوابيَّة مقاربته للتراث العربّي، وصوابيَّة احتفائه بالمتحوِّل في الفكر والإبداع العربيين، تحرّكت مقارباته للتراث العربيّ الساكن في المؤسَّسة الثّقافيَّة المجنّدة لمصلحة "الثابت" وكَشفت حقيقة هذا "الثابت" فيهما وما يعتريه من آفات. وهذا أدَّى إلى زعزعة ثوابت النقد وتغيير طبيعة النظر إلى الماضي،[٢٣] . وكانت هذه الخطوة وبالًا على كاتبها، فقد ثارت هذه المؤسَّسة عليه واتَّهمته بالغلوّ.

١٩ محمد، مدخل إلى فهم الإسلام(الفكر الإسلامي: نظمه-أدواته-أصوله)، ٩١.
٢٠ الجابري، محمد. التراث والحداثة، ط١ (بيروت - لبنان: مركز دراسات الوحدة العربيّة، ١٩٩١)، ٢٩٧.
٢١ محمد، مدخل إلى فهم الإسلام(الفكر الإسلامي: نظمه-أدواته-أصوله)، ٩٨.
٢٢ أدونيس، الثابت والمتحوّل. ج١، ٣١.
٢٣ وتوت، وداد. إشكاليّة الخطاب العربي في (الكتاب) لأدونيس، ط١ (دمشق، سوريا: تموز للطباعة والنشر، ٢٠١٧)، ١٩.

١-٤ نعي الثقافة العربيَّة:

كان بيان ٥ حزيران ١٩٦٧ الذي أصدره أدونيس بعد شهر من الهزيمة مدوِّيًا. إنَّ زمن الفرد العربيّ ضاع وتجمّد في مستنقعات القرون الوسطى وما قبلها. لقد أقام هؤلاء سدودًا بين هذا الفرد وبين الحضارة. بينه وبين شمس المستقبل. وكتبه بلغة شعريَّة - فكريَّة طارحًا أسئلة وجوديَّة وكيانيَّة مثل: من أنا؟ هل أعرف نفسي؟ هل أنا في حياة لا تعرف الفكر العظيم؟ وإن كنت أُخوِّنُ كلَّ فكر في بلادي غير فكريّ، أفلا يعني هذا أنّني جزء من وطن خائن، بمعنى ما، وأنّني قابل جاهز كلّ لحظة لأن أكون، بدوري خائنٍ؟... هل يحيا فيَّ أسلافي الذين ابتكروا الأبجديَّة، وقرأوا المحيطات، ومدّوا قوس حضارة تتلألأ بين سمرقند وغرناطة... حتَّى يصل إلى مقولة دالّة ساخرة: ليس العدوّ المباشر هو من يغلبني، يغلبني العدوّ الآخر، غير المباشر، المستتر[٢٤].

بهذا البيان افتتح أدونيس ما وصف بأنَّه النقد الذاتيّ بعد الهزيمة وهو يعكس بشكل واضح جانبًا أساسيًّا من ملامح أدونيس الفكريَّة. تقول الناقدة خالدة سعيد "إنَّ هذا البيان هو امتداد للمنحى النقديّ التّاريخيّ الحضاريّ الذي ظهر واضحًا منذ عام ١٩٥٨ في قصيدتي أدونيس "مرثيّة الأيَّام الحاضرة" و"مرثيّة القرن الأوَّل" إلى أن بلغ ذروته في الكتاب I و II و III على مستوى الشّعر" [٢٥].

وفي نصٍّ إبداعيٍّ على شكل مرثاة فكريَّة لا تخلو من أبعاد أيديولوجيَّة نعى أدونيس الحياة العربيَّة ثقافة، وإبداعًا وتاريخًا. فالإنسان العربيّ لم يتغيّر من الداخل. وفي بنيته العقليَّة العميقة، شخصيَّة داخليَّة لم تزل كما كانت منذ خمسة عشر قرنًا. كأنَّ الفرد فيه أثر تاريخيّ من القرن الخامس، يلبس شكل الإنسان دون الجوهر الإنسانيّ. فهو يتغيّر بالشّكل الذي يخلعه عليه العالم في مسيرته الإبداعيَّة، لذلك لا يمكنه اجتياز مسافة الجوهر- مسافة الإبداع الحضاريّ[٢٦]. لقد أدَّى العجز الثّقافيّ العربيّ إلى ظهور تيارات سياسيَّة وفكريَّة، طرحت المساءلة الجذريَّة للكثير من الأمور التّاريخيَّة. فدخلت الأمَّة في طور الانفصام الحضاريّ

٢٤ أدونيس، فاتحة لنهايات القرن، ١٧_ ١٨.
٢٥ سعيد، خالدة. يوتوبيا المدينة المثقّفة، ط١ (بيروت: دار الساقي، ٢٠١٢)، ١٦٨.
٢٦ أدونيس، فاتحة لنهايات القرن، ٢٩.

الناتج عن ازدواجيَّة الواقع المنظور. وقد هزّت هزيمة ١٩٦٧ الوعي العربيّ وكان لوقعها أثر تحويليّ في نفوس النخبة المثقّفة الرافضة للواقع الجديد وكان لا بُدَّ من البحث عن مخرج للأزمة المتفاقمة. كانت أوائل السبعينات بداية لمنحى التحوّل النقديّ والأدبيّ. وكانت المهمَّة الحضاريَّة الجديدة هي نقل النقد الحديث إلى حقل معرفيّ يوظّف كلَّ العلوم ما اقتضى مراجعة الموروثات ومعاينتها برؤية نقديَّة جديدة.

٢- إدماج ثنائيَّة القديم والحديث:

يتساءل أدونيس ما مشكلة الفكر العربيّ الأولى؟، ويجيب "هي أنَّه لا يقدِّم إلَّا الحلول". لذلك بيّن للذين يقولون أنَّ "التّاريخ هو الماضي" مُوضِّحًا: " إنّكم لا تعرفوننا نحن العرب. فحاضرنا ليس شيئًا آخر غير تاريخنا"[٢٧]. كما و"يحلم العربّي أن يتجاوز الفكر العربّي الوثوقيّات، ويتذكَّر أنَّ هذه، بانغلاقيّتها وعصمويّتها، كثيرًا ما أدّت إلى الاعتباطيّة، أي إلى نوع من الارتجال والفوضى، لم يحل دون حرِّيَّة التساؤل والبحث وحسب، وإنَّما عطَّل كذلك الحركة الثّقافيَّة العربيَّة"[٢٨]، التي تواجه اليوم خطرًا وهو أن تفرغ شيئًا فشيئًا من عقلانيّتها ومن فكريّتها. كذلك "يحلم العربي في هذه المرحلة الثوريَّة – الكونيَّة، أن يكون تغيير المجتمع العربي شاملًا وجذريًّا، ويدرك أنّ التغيير الثوري لا يقتصر على إعادة بناء السياسة، وإنَّما يشمل كذلك إعادة بناء المجتمع بوصفه كُلًّا"[٢٩]. أي لا بدَّ من تغيير العادات والتقاليد والمدرسة والجامعة وقوانين العدالة والحياة والاقتصاد والثّقافة.

٢-١ وجوب التكامليَّة بين التراث والحداثة:

لم يُرد أدونيس أن يكون طوباويًّا فيوفِّق بين التراث والحداثة. فقد اعتبر "أنَّ الزواج بين الحداثة المستوردة من أوروبا والتراث الذي يهيمن على النظام السياسيّ، والاجتماعيّ، والثّقافيّ العربيّ، قد أدَّى إلى صحراء من الاستيراد والاستهلاك"[٣٠]. وعن حقيقة الحداثة يجيب: "الحداثة في المجتمع العربيّ إشكاليَّة معقّدة، لا من حيث علاقته بالغرب وحدها، بل من حيث تاريخه الخاصّ أيضًا، بل يبدو لي أنَّ الحداثة هي إشكاليَّته الرئيسة"[٣١].

٢٧ أدونيس، ٧٠_ ٧١.
٢٨ أدونيس، ١٥٦.
٢٩ أدونيس، ١٥٧.
٣٠ ديب، كمال . بيروت والحداثة (الثّقافة والهويّة من جبران إلى فيروز)، ط١ (بيروت: دار النهار، ٢٠١٠)، ٢٢٧.
٣١ أدونيس، فاتحة لنهايات القرن، ٢٧٠.

أمَّا بخصوص ثنائيَّة "تراث/ حداثة" فيرى أدونيس ضرورة التكامل والمزج بينهما، حيث إنَّ التراث يمكن أن يُسهم في الحداثة إذا كان فيه تحوّل ناتج عن تحرّر الفكر العربيّ من التبعيَّة فيبني المتحرِّر حداثته بالتجاوز من التراث إلى التراث نفسه بأدواته. لذلك فأدونيس لا يرفض التراث، وإنَّما يرفض أن يكون اتِّباعيّ وينادي بالإبداع الخارج عن سنن الموروث والطارح لفكر جديد ورؤى جديدة.

والرؤية إلى الحداثة، لدى أدونيس، كأفق معرفيّ، له حقيقة وغاية. هذه الحقيقة تستوجب الإلغاء بعد أن حكمتها الأوهام، ثُمَّ التشبّث بالإبداعيَّة. أو تتطلّب التصريح بعدم تحقّقها، لتعذّر البُعد المعرفيّ أو غيابه. ذلك هو موقف أدونيس، في "بيان الحداثة". وفي الدراسات الأخيرة، يقول أدونيس: "الحداثة هي بالضرورة انشقاق وهدم من حيث إنَّها تنشأ عن طرائق معرفيَّة لم تُؤلِّف، وتطرح قيمًا لم تؤلّف" [٣٢]. ويتابع: "والحقّ أنَّنا نحن العرب اليوم لا نخلق حداثتنا الخاصّة في القرن العشرين بقدر ما نعايش قليلًا أو كثيرًا نهايات الحداثة التي خلقها بعض أسلافنا الهامشيّين في القرنين التاسع والعاشر. ونقول أخيرًا لا حداثة على المستوى النَّصِّيِّ الإبداعيِّ أو على مستوى التنظير، خارج هذا التمزُّق المعرفيّ، وما عدا ذلك ممَّا يسمّيه البعض حداثة ليس إلَّا تقليدًا آخرًا، أو مرضًا ثقافيًّا آخر في قلب تاريخنا الذي أنهكته الأمراض"[٣٣]، فالحداثة التي ينادي بها أدونيس حداثة تمتدُّ جذورها إلى أعماق التراث العربيّ: "إنَّ جذور الحداثة الشّعريَّة العربيَّة، بخاصَّة، والحداثة الكتابيَّة، بعامَّة، قد وضعت أسسًا نقديَّة جديدة لدراسة النصّ، بل ابتكرت علمًا للجمال، جديدًا، ممهّدة بذلك لنشوء شعريَّةٍ عربيَّة جديدة"[٣٤].

٢-٢ الحركة الخلاص:

لا بدَّ من القول: أنَّ حركة الخطاب الأدونيسيّ هي "حركة جوهريَّة"، قائمة على الحراك الدائم بالارتكاز على النواة أو الأصل المولّد. ويمكننا ملامسة هذا الحراك في التعريفات المتعدّدة لمفهوم أو مصطلح الحداثة عنده. هذه التعريفات نراها تتبدّل من حين لآخر،

٣٢ أدونيس، ٣٠٤.
٣٣ أدونيس، ٣٠٤_ ٣٠٥.
٣٤ أدونيس، الشّعريّة العربيّة، ط٢ (بيروت: دار الآداب، ١٩٨٩)، ٥٠ _ ٥١.

وبدرجة قد تصل إلى التّضادّ والتّضارب، عند قراءة كلِّ مفهوم بمعزل عن سياقه وظرفه. فتارة يُعَرِّف الحداثة بأنَّها بأبسط دلالاتها "حركة تقوم على قول ما لم يُقل في هذا المجتمع، على رؤية عوالم متحرّرة من جميع العوائق النظريَّة والعمليَّة، في حرِّيَّة تخيّل كاملة، وحرِّيَّة تعبير كاملة، ويتعذّر ذلك دون تجاوز النظام المعرفيّ السائد"[٣٥]. وتارة أخرى بأنَّها: "الاختلاف في الائتلاف، الاختلاف من أجل القدرة على التكيّف، وفقًا للتغيّرات الحضاريَّة، ووفقًا للتقدّم، والائتلاف من أجل التأصّل والمقاومة، والخصوصيَّة"[٣٦].

إنَّ الوعي بالزمن يمكّننا من إدراك خطِّ سير الحضارات، التي تتراوح بين الصعود والانحدار. ويساعد على تشييد بناء حضاريّ يفوق ما شيّده الأسلاف. في هذا الصدد يرفض أدونيس منطق الاستعارة الحضاريَّة ولا يكفُّ عن الحركة للخلاص من فكرة الانشداد المتناقضة والممزِّقة. هذا الانشداد هو "محنة الوعي العربيّ، بكلِّ ما تعنيه كلمة محنة من أبعاد مأساويَّة... إنَّها ثمرة القطيعة بين الحاضر والماضي، أو الذات من جهة وبين الواقع العربيّ والواقع العالميّ– الحضاريّ من جهة ثانية"[٣٧]. لذلك يرى أدونيس الناسَ شطرين: "شطرًا/ يَقتَدي بالذئابِ، وشطرًا/ يَهتدي بالنَّعَامْ/ "[٣٨].

في ديوانه هذا هو اسمي، يقول: " قادرٌ أن أغيِّر: لغْم الحضارة– هذا هو اسمي.

..... وقفت خطوة الحياة على باب كتابٍ محوته بسؤالاتِيَ ماذا أرى؟ أرى ورقًا قيل استراحت فيه الحضارات (هل تعرف ناراً تبكي؟)... قادرٌ أن أغيِّر: لغمُ الحضارةِ – هذا هو اسمي

الأمّةُ استراحت

في عسلِ الربابِ والمحرابْ

حصَّنها الخالقُ مثلَ خندقٍ

وسدَّهُ.

لا أحدٌ يعرف أين البابْ

٣٥ أدونيس، فاتحة لنهايات القرن، ٣٠٠.

٣٦ أدونيس، ٢٧٥_ ٢٧٦.

٣٧ برهان غليون، الوعي الذاتي، ط٢ (بيروت: المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر، ١٩٩٢)، ١٢٤.

٣٨ أدونيس، الكتاب أمس المكان الآن .١٦٠ ، I

لا أحدٌ يسأل أين البابْ" [٣٩]

"سنقول البساطة: في الكون شيءٌ يُسمّى الحضورَ وشيءٌ

يسمَّى الغيابَ نقول الحقيقةَ:

نحنُ الغيابْ

لم تلدنا سماءٌ لم يلدنا ترابْ.

إنَّنا زَبَدٌ يتبخَّرُ من نَهَرِ الكلماتِ

صدأٌ في السماء وأفلاكِها

صدأٌ في الحياةِ!

وطني فيَّ لاجىءٌ

وليكنْ وجهي فيئًا!"[٤٠]

وهكـذا وفي ظـلّ مـا يعيشـه المجتمـع العـربيّ مـن اصطدامـات فكريَّـة وحضاريَّـة تشـتّتت الـذات العربيَّة، وأصبحت تعاني من تصدُّع الهُويَّة الإنسانيَّة لا تعرف بابًا للخروج من خندق الظـلام الـذي وضعتهـا فيـه السـلطة. حتَّـى أنّ لا أحـد يسـأل عـن هـذا البـاب أصـلًا. وأصبـح العـربيّ يعيـش حالـة الغيـاب الحضـاريّ. مـن هنـا طـرح أدونيـس فكـره ورؤيتـه إلى الواقـع العـربيّ محقّقًـا رؤيـة أيديولوجيَّـة خاصّـة بـه. تجلّـت هـذه الرؤيـة في هـذه الأسـطر الشّـعريَّة التـي أراد بهـا أن يغيّر لغـم الحضـارة العربيَّـة، ويمحـو غبـار التّاريـخ عـبر طـرح الأسـئلة المكبوتـة في وعـي الأمَّـة. وذلـك مـن أجـل إعـادة بنائهـا مـن جديـد لتُبـدع. ولا يكـون الإبـداع عـبر الأخـذ مـن الغـرب أو تقليـد الحضـارة الغربيَّـة، فأدونيـس يقـول: "لا أريـد أن أُعـلي مـن شـأن الحداثـة الغربيَّـة بحيـث أجعلهـا معيـارًا مطلقًـا للتقـدّم، ولا أريـد بالمقابـل، أن أُنكـر الإنجـاز العظيـم، الفكـريّ والتقنـيّ، الـذي حقَّقتـه، أو أن أدعـو إلى الانفصـال عنهـا وإلى رفضـه، مـا أريـد هـو أن نعيـد الاسـتبصار المعـرفيّ الخلّاق في هـذه الحداثـة وفي تراثنـا عـلى السـواء، وأريـد أن أؤكِّـد عـلى أنَّ الحداثـة لا تكـون بالعـدوى، أو بالتقليـد، أو بالاقتبـاس الشّـكلي، وعـلى أنَّ المجتمـع يكـون حديثًـا بإبداعـه حداثتـه

٣٩ أدونيس، الأعمال الشّعريّة الكاملة. ج٢، ٤٣٦_٤٣٢.
٤٠ أدونيس، ٤٣٤_ ٤٣٥.

الخاصّة، بممارسة ثورته الداخليَّة الخاصَّة التي تخرجه من عالمه التقليديّ"[٤١]. وللانعتاق من العالم التقليديّ والتحرُّر منه لا بُدّ من تغيير بُنية الثقافة ."إنَّ ثقافتنا العربيَّة الحاضرة هي ثقافة الاجترار والقبول والتّكيُّف. تثبّت الماضي والتقليد، والمؤسّسات والأنظمة، وتنفي الإنسان والحرِّيَّة. إنَّها تتخلَّى عن معنى الثّقافة الجوهريّ الأوَّل: الإبداع المغيّر، المحرّر... إنَّها جوهريًّا ثقافة القمع"[٤٢].

وبما أنَّ الواقع الثّقافيّ الراهن هو الصراع بين قوى أيديولوجيّة والطرف الراجح الغالب في هذا الصراع هي القوى الأيديولوجيَّة التقليديَّة. هذه القوى هي التي تحوّل التراث إلى قوّة أيديولوجيّة تضمن استمرار الماضي. ولا يكون العربي عربيًّا إلَّا بقدر إيمانه وارتباطه بهذا التراث، كما تفهمه هذه الأجهزة. فلا بُدَّ طبقًا لرؤية أدونيس للطليعة الثوريَّة من أن تنقد أشكال الوعي الغيبيّ الذي يعرقل نمو الوعي الثوريّ، ويرسّخ الثّقافة الماضويَّة واستمرارها. لذلك على الطبقات المسحوقة أن تنتج وعيها الخاص بها، وذلك يكون بالممارسة الثوريَّة والنّضال الأيديولوجيّ جزء أساس من هذه الممارسة[٤٣]. "ولا يصحّ قبول التغيّر إلّا شريطة ألّا يخلّ بالأصل، أي أن يكون متوافقًا مع الماضي، وأن يوجِّهه روح الأصل، وأن يحاكي، بتعبير أدقّ، نموذجًا سابقًا. والتغيّر هنا شكل من تفتّح الثابت ونموَّه، فهو تقليد ومتابعة وليس ابتكارًا"[٤٤]. "المسألة، اليوم، في المجتمع العربّي، بخاصّة، والمجتمعات الإسلاميَّة، بعامّة، لم تعد مسألة إصلاح وإنَّما أصبحت مسألة التأسيس لمجتمع جديد، مدنيّ، يتيح التأسيس لثقافة عربيَّة جديدة"[٤٥]. يبدو في ضوء ما تقدّم، كيف أنَّ الثّقافة العربيَّة تأسَّست، اتّباعيًّا أو تقليديًّا، و هكذا يحدِّد التراث هُويَّة الأمَّة ويحدِّد رسالتها"[٤٦].

٤١ أدونيس، "حداثة الشيء أم حداثة الإنسان؟،" مجلّة أبواب ٩_١٢، العدد١. ١٩٩٤: ١٢.
٤٢ أدونيس، فاتحة لنهايات القرن، ١٤٢.
٤٣ أدونيس، زمن الشّعر. (ط.٦) (بيروت – لبنان: دار الساقي، ٢٠٠٥)، ٥٥_ ٥٦.
٤٤ أدونيس، الثابت والمتحوّل. ج١، ٧٣.
٤٥ أدونيس، غبار المدن بؤس التّاريخ، ط١ (بيروت – لبنان: دار الساقي، ٢٠١٥)، ١٣.
٤٦ أدونيس، الثابت والمتحوّل. ج١، ٩٤_ ٩٥.

إنَّ الإطار الثّقافيّ العربيّ هو إطار السياسة العربيَّة... وكما أنَّ السياسة "الثّقافة السائدة" تنتج الحاضر والماضي، أيديولوجيًّا أي وهميًّا – لاستنفار الأتباع والأنصار وتجييشهم، كذلك تفعل السياسة "الثّقافة المعارضة السائدة". إنَّهما تنتجان "الثورة" و"التراث" أيديولوجيًّا. إنَّ الفكر السياسيّ العربي الحديث يرسم طريقتين للخلاص أو للتحرُّر: طريقة سلفيَّة، وطريقة تقدُّميَّة. الأولى تضمن الخلاص بالماضي، والثانية تضمنه بالأيديولوجيا. ويبدو أنَّ محاولات الإنتاج المادِّيّ، أكثر المحاولات إيغالًا لتأطير الموروث أيديولوجيًّا، أي لإنتاج معرفة وهميَّة محضة[٤٧]. هذا الفكر العربي السائد، نظامًا ومعارضة، لا يشوّه الواقع والحقيقة وحدهما، وإنَّما يشوّه كذلك اللُّغة والمنطق. وهذا ما لا يريده أدونيس. لذلك واطن التمرّد والخروج عن هذا الفكر.

" كَيْفَ لي أن أواطِنَ هذي الحياةَ، كما
رَسَمُوها وكما خَيّلوها ؟
لَن أواطِنَ غيرَ التمرّدِ فيها والخروج عليها" [٤٨]

الخاتمة

خلاصة القول إنَّ أدونيس يمزج في تناوله لمسائل الإشكال المعرفيّ العربيّ بين قواطع معرفيَّة متباينة يَبلغ تبايُنَها حدَّ الاختلاف الصارخ. وهو في كتبه النقديَّة يعالج أمورًا أخرى، تدور على التأويل واللّغة والمخاطبة. ويتولّد منها هجين مخضرم من الامتزاج والتداخل في الثّقافة التي يحملها، ظهرت في خطابه الشّعريّ، وهي تعبِّر عن الأبعاد الأيديولوجيَّة التي يتخفّى خلفها، وتعبّر عن طموح موحّد تحكمه التساؤلات المتلازمة لحلّ الإشكال المعرفيّ العربيّ ما بين الانجرار الثّقافي لحضارة "ما قبل"، أو ضمان الاتّصال الحضاريّ بضخّ الحياة فيه وتحويله إلى حضارة "ما بعد".

ويبدو أنَّ أدونيس تجنَّب الوقوع في التّداخل الثّقافيّ بين الحضارتين، العربيَّة والغربيَّة. وعَمد إلى تأسيس رؤيا لمعالجة الإشكال المعرفيّ العربيّ تستبطن إلغاء البنية الأساسيَّة في جهاز التفكير للعقل العربيّ، بالعودة إلى الأصل المولّد الفعال، أي إلى أساس النظام الوجوديّ

٤٧ أدونيس، فاتحة لنهايات القرن، ٢٠٩.
٤٨ أدونيس، الكتاب أمس المكان الآن ٢٨١.

وذلك عبر طرح تأويلات متناسلة للنّص وهدم التأويل السلطويّ.

أراد أدونيس هدم التأويليَّة التقليديَّة فطرح تأويلات جديدة ذاتيَّة وخاصَّة. هذه التأويليَّات تُزيح السياج التأويليّ النصِّيّ الذي يحكم قبضته على المفكِّر الحداثيّ وتسمح له بتخطِّي النصّ وطرح تأويليَّة جديدة تمكَّن المسلم من التشريع لأحوال معاشه خارج نطاق النصّ وداخل رؤاه ومنطلقاته الذاتيَّة، وانطلاقًا من التجربة البشريَّة للدين وإخضاع المُعطى للقراءة الظاهراتيَّة.

طرح أدونيس رؤاه الحداثويَّة الجديدة والتي ترى إلى العوامل الذاتيّة الداخليَّة التي تريد المغايرة والتمرُّد والكشف للوصول إلى الكونيَّة مخترقًا بذلك المعطى السائد. أراد برؤيته النقديَّة أن يحارب الألفة بصدع ما تعارف عليه الناس. لذلك دعا إلى التركيز على الفرديَّة والعوالم الداخليَّة للشاعر "الذاتيّة"، وكلاهما يلغي الألفة فيغيِّر الطريقة السائدة في رؤية الحياة والعالم والتي كان يرى إليها العربي. أراد أدونيس التمرُّد على كلِّ الأشكال الشّعريَّة التقليديَّة والأفكار السلطويَّة ليكتشف وجهًا جديدًا لعالم مخبوء خلف علائق خفيّة ف "الشّعر لا يكون عظيمًا إلَّا إذا لمحنا وراءه رؤيا للعالم" [٤٩].

تحرّكت هُوِيَّة أدونيس رافضة دائمًا للثبات مُتوجِّهة نحو عوالمها الداخليَّة مُبتعدة عن الجماعة، فوسَّعت الهوَّة بينها وبين العالم عندما حوَّلته إلى أشياء لتتعامل معه. وقد فتحت جسارة إقحام أدونيس لباطن موروثه في خطابه الأدبيّ بابًا للتساؤل إلى ما وراء الحروف، والكلمات، والدلالات.

يدفعنا هذا الأمر إلى التساؤل حول التأويل والغاية المنشودة منه، فهل أصبح التأويل مهمَّة مشروعة الهدف منها قهر النصّ لإثارة الجدل؟ وهل تحوّل التأويل إلى إستراتيجيَّة ذكيَّة عابرة للثقافات والأزمان وقادرة على الأخذ إلى معانٍ أرضيَّة أيديولوجيَّة فعَّالة تأخذ على عاتقها تفسير النصّ وتحويله إلى أيديولوجيا.

٤٩ أدونيس، زمن الشّعر. (ط.٦)، ١٥٢.

المصادر

أدونيس. الآثار الكاملة. مج١. ط١. بيروت – لبنان: دار العودة، ١٩٧١.

أدونيس. الأعمال الشّعريّة الكاملة. ج٢. ط١. بيروت: دار الساقي، ٢٠١٤.

أدونيس. الأعمال الشّعريّة الكاملة. ج٤. ط١. بيروت: دار الساقي، ٢٠١٤.

أدونيس. الثابت والمتحوّل. ج١. ط١. القاهرة: الهيئة العامّة لقصور الثّقافة، ٢٠١٦.

أدونيس. الثابت والمتحوّل. ج٣. ط١. القاهرة: الهيئة العامّة لقصور الثّقافة، ٢٠١٦.

أدونيس. الشّعريّة العربيّة. ط٢. بيروت: دار الآداب، ١٩٨٩.

أدونيس. الكتاب أمس المكان الآن . ط١. بيروت: دار الساقي، ١٩٩٥.

أدونيس. المحيط الأسود. ط٢. بيروت: دار الساقي، ٢٠١٤.

أدونيس. النصّ القرآني وآفاق الكتابة. ط٢. بيروت: دار الآداب، ٢٠١٠.

أدونيس. "حداثة الشيء أم حداثة الإنسان؟." مجلّة أبواب ٩–١٢، العدد١ (١٩٩٤).

أدونيس. زمن الشّعر. (ط.٦). بيروت – لبنان: دار الساقي، ٢٠٠٥.

أدونيس. غبار المدن بؤس التّاريخ. ط١. بيروت – لبنان: دار الساقي، ٢٠١٥.

أدونيس. فاتحة لنهايات القرن. ط٣. بيروت: دار الساقي، ٢٠١٤.

أدونيس. "محاولة في تعريف الشّعر الحديث." مجلّة شعر، العدد١١، مجلد٣. (١٩٥٩).

أدونيس. موسيقى الحوت الأزرق. دمشق: دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، ٢٠١٨.

الجابري، محمد. التراث والحداثة. ط١. بيروت – لبنان: مركز دراسات الوحدة العربيّة، ١٩٩١.

ديب، كمال. بيروت والحداثة (الثّقافة والهويّة من جبران إلى فيروز). ط١. بيروت: دار النهار، ٢٠١٠.

سعيد، خالدة. يوتوبيا المدينة المثقّفة. ط١. بيروت: دار الساقي، ٢٠١٢.

ضاهر، عادل. الإثم الهيراقليطي أو إرادة الالتباس في عالم أدونيس. اتّجاه، ٢٠١٧.

غليون، برهان. الوعي الذاتي. ط٢. بيروت: المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر، ١٩٩٢.

محمد، يحيى. مدخل إلى فهم الإسلام(الفكر الإسلامي: نظمه–أدواته–أصوله). ط١. بيروت: مؤسسة الانتشار العربي، ١٩٩٩.

محمّد، يحيى. "التراث المعياري وصراع الأصول المولّدة،" ٢٠١٠.

https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=226141.

وتوت، وداد. إشكاليّة الخطاب العربي في (الكتاب) لأدونيس. ط١. دمشق، سوريا: تموز للطباعة والنشر، ٢٠١٧.